الخلافة الأموية (٤١ – ١٣٢هـ)

خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ – ٦٠هـ):

بعد وفاة الإمام علي بن أبي طالب (ع)، بايع المسلمون بالكوفة ابنه الإمام الحسن (ع) في رمضان سنة ٤٠ هـ، في نفس الوقت الذي بويع فيه معاوية بالخلافة في القدس، وقد عبر الحسن منذ اليوم الأول الذي تولى فيه الخلافة عن تمسكه بسياسة السلم وتجنب إراقة الدماء، مما يؤكد نفوره من الحرب وزهده في الخلافة، ويبدو أن الأحداث الدامية التي رافقت خلافة عثمان بن عفان وخلافة الإمام علي بن أبي طالب كان لها تأثيراً عميقاً في نفسه. أما معاوية فقد سارع بتوجيه أحد قوداه على رأس جيش إلى العراق فور سماعه نبأ وفاة الإمام علي، فلما وصل جيش معاوية إلى الأنبار تصدى له الحسن الذي رأى من جنده زهداً وانصرافاً عن الحرب، فخطب فيهم داعياً إياهم إلى الجماعة ونبذ الفرقة، ولما رأى الإمام الحسن انه غير أمن على نفسه وان أصحابه يتربصون به كتب إلى معاوية في الأنبار يعرض عليه الصلح والتنازل عن الخلافة لقاء شروط يشترطها، فلم يتردد معاوية في الاستجابة لجميع شروط الحسن، فسار الأخير إلى الكوفة والتقى بمعاوية فيها في أواخر شهر ربيع الأول سنة ٤١ هـ، وسمي هذا العام بـ (عام الجماعة) لاجتماع المسلمين على خليفة واحد.

وقد سميت الدولة الجديدة بـ (الدولة الأموية) نسبة إلى أميه بن عبد شمس جد الأمويين الأكبر، واتخذ معاوية مدينة دمشق عاصمة للدولة لأنها كانت موطن أنصاره الذين أخلصوا له، واستقرت له الأمور في كافة أقاليم الدولة العربية الإسلامية، فقد تخلص من خطر العلويين الذين كانوا متفرقين في الحجاز والعراق ومصر، وتمكن ولاة معاوية من تحجيم دورهم بأن ألقوا القبض على عدد من زعمائهم فأمر معاوية بقتل عدد منهم.

وكان أخطر المعارضين لخلافة معاوية هم الخوارج الذين هاجموا في بداية خلافته مدينة الكوفة، فوجه جيشاً من أهل الشام لقتالهم إضافة إلى أهل الكوفة فاستطاعوا

هزيمة الخوارج، وتوالت ثورات الخوارج ضد الأمويين في الكوفة إلى أن تمكن جند الكوفة والشام من القضاء على قوتهم هناك، كما شهدت مدينة البصرة صراعاً شديداً بين الأمويين والخوارج إلى أن تمكن والي البصرة حينذاك زياد بن أبيه من إخماد حركة الخوارج بمساعدة جند البصرة.

أما الأعمال الإدارية في عهد معاوية بن أبي سفيان فقد تم استحداث بعض التغييرات. وإدخال نظم جديدة تتفق مع ظروف الدولة وطبيعة البلاد، منها استحداث ديوان (البريد) وتنظيمه حرصاً على سرعة وصول الأخبار إلى مركز الخلافة، كما أنشأ ديوان (الخاتم) لحفظ الكتب التي تصدر عن دار الخلافة أو عن عماله في الأمصار، وختم النسخة الأصلية المرسلة بخاتم الخليفة ثم تحزم وتمهر بالشمع. كما عهد بالإدارة المالية إلى جماعة من أهل الذمة ممن عرفوا بكفاءتهم في هذا المجال، كما تم تقوية وتدعيم البحرية الاسلامية ومضاعفة امكانياتها لمواجهة الغارات البيزنطية.

أما الفتوح الإسلامية في خلافة معاوية فقد اتجه المسلمون إلى الفتح شرقاً وغرباً وشمالاً ففي الشرق توغل المسلمون في بلاد الهند والسند. أما الحروب مع الدولة البيزنطية فقد بدأت منذ أوائل الخلافة الأموية فاتجهت جيوش المسلمين إلى هذه البلاد، وكانت أعظم حملة سنة ٤٨ هـ نحو القسطنطينية التي حاصرها المسلمون أشهرا عديدة، لكنهم لم يتمكنوا من فتحها بسبب حصونها المنيعة وكثرة الأمطار والثلوج. أما في الغرب فقد سار عقبة بن نافع نحو افريقية (تونس) سنة ٥٠هـ وتمكن من فتحها وأسلم على يديه الكثير من البربر، وأسس عقبة مدينة القيروان في السنة نفسها، وبنى فيها مسجداً وادارا للإمارة، وجعلها قاعدة للجيوش الإسلامية التي استطاعت فتح بلاد المغرب كلها حتى وصلت الى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي).

أما الشيء المهم الذي حدث في عهد معاوية فهو مسألة الوراثة في الحكم إذ انه أول من بدأ بهذا العمل في الإسلام، فقد أشار عليه المغيرة بن شعبة بولاية العهد ليزيد بن

معاوية مدعيا أن ولاية العهد سوف تجنب المسلمين الفتن والاقتتال وتمنع سفك الدماء، فرحب معاوية بهذا الرأي، فأخذ البيعة لابنه يزيد سالكاً كل الوسائل إلى ذلك، تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب والتهديد، وبذلك انتقلت الخلافة من خلافة إسلامية تعتمد الشورى والانتخاب إلى ملكية وراثي.

خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ – ٦٤هـ)

تولى يزيد الخلافة بعد وفاة أبيه في رجب سنة ٦٠ هـ، وطلب يزيد من واليه على المدينة المنورة الوليد بن عتبة اخذ البيعة له من أهلها وفي مقدمتهم الإمام الحسين بن علي (ع)، وعبد الله بن الزبير اللذين امتنعا عن مبايعته وسار الإمام الحسين إلى العراق بعد مكاتبة أهله له، وانتهى أمره بتلك الفاجعة المؤلمة حيث قتل هو وعدد من أهل بيته في موقعة كربلاء (واقعة الطف) الشهيرة في شهر محرم سنة ٦١ هـ، التي أحدثت في نفوس المسلمين أثراً محزناً ومؤلماً.

ومن الأحداث الأخرى في عهد يزيد هي أمره بغزو المدينة المنورة لان أهلها كرهوا خلافته، فوصل الجيش بقيادة مسلم بن عقبة المري الذي قتل عدداً من أعيان المدينة والصحابة، وعرفت هذه الموقعة بـ (الحرة) وذلك في أواخر سنة ٦٣ هـ، بعد ذلك توجه هذا الجيش نحو مكة لقتال عبد الله بن الزبير الذي تحصن فيها وحصل على بيعة أهل الحجاز، فشرع الجيش الأموي بقتال أهل مكة ثم وصل خبر وفاة يزيد في شهر ربيع الثاني سنة ٦٤ هـ فتوقف القتال. تولى الخلافة من بعده ابنه معاوية بن يزيد الذي كان زاهداً بالخلافة ولم يبق فيها إلا أربعين يوماً، توفي بعدها مسموماً كما ذكرت بعض الروايات.

خلافة مروان بن الحكم (٦٤ – ٦٥ هـ)

لم يعهد معاوية بن يزيد بالخلافة لأحد من بعده، وظهر أكثر من مرشح للخلافة من الأمويين، وتم عقد اجتماع للعائلة الأموية في الجابية (احدى قرى الشام) واتفقوا على تسمية مروان بن الحكم خليفة، الذي كان له نفوذ كبير في بني أمية باعتباره كبير أسرته، أما في الحجاز فقد استوثق الأمر فيها لعبد الله بن الزبير وبايعه أهل مصر وخراسان وأكثر أهل العراق وقسم من أهل بلاد الشام، وجعل مروان ولاية العهد من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز من بعده، وما لبث مروان أن توفي في رمضان سنة ٦٥هـ.

خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ)

تولى عبد الملك الخلافة بعد وفاة أبيه مروان بن الحكم، ورافق ذلك تصاعد حركات المعارضة ضد الحكم الأموي، فقد بويع لعبد الله بن الزبير في الحجاز والبصرة، كما أعلن المختار الثقفي الدعوة لآل البيت في الكوفة طلباً بثأر الامام الحسين (ع)،فضلا عن المشكلات الأخرى التي واجهها في بلاد الشام كمنافسة عمرو بن سعيد بن العاص من بني أمية له في الخلافة واستغلال الروم البيزنطيين للظروف التي كانت تمر بها الدولة العربية الإسلامية وصعدوا من عملياتهم الحربية ضد الثغور الإسلامية، وقد تجلت مقدرة عبد الملك السياسية من خلال معالجته للمشاكل والأخطار وصموده في وجه التحديات التي هددت الخلافة الأموية، كذلك شهد عهده العديد من الانجازات الإدارية والمالية التي ثبتت أركان الدولة، وصبغتها بالصبغة العربية الإسلامية كتعريب الدواوين وسك العملة الجديدة.

فمن أولى المشكلات التي واجهت عبد الملك هي حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة للأخذ بثأر الإمام الحسين بن علي (ع)، واستطاع المختار كسب الموالي

في حركته، وقد حاول الاتصال بالإمام علي زين العابدين بن الحسين (ع) لإضفاء الصفة الشرعية على حركته، واشتدت حركة المختار بمرور الزمن فاستطاع السيطرة على الكوفة سنة ٦٦ هـ، وانتصر على الجيش الأموي بقيادة عبيد الله بن زياد (الذي قتل في المعركة). في معركة (خازر) قرب الموصل، إلى أن تمكن مصعب بن الزبير والي العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في الحجاز حينذاك من الانتصار على جيش المختار في موقعة (المذار) سنة ٦٧ هـ إلى أن تم قتل المختار في الكوفة بعد حصاره فيها وذلك في رمضان سنة ٦٧هـ. وكان عبد الملك بن مروان يراقب تطور الصراع الدائر في العراق بين المختار ومصعب بن الزبير بانتظار ما سينجم عن هذا الصراع من نتائج يقرر في ضوئه اتخاذ القرارت المناسبة فاستعد عبد الملك لمواجهة مصعب بن الزبير وحسم الموقف في العراق، فخرج على رأس جيشه في مطلع سنة ٧١هـ، والتقى الطرفان في معركة (دير الجاثليق) قرب الكوفة سنة ٧٢هـ وانتهت بمصرع مصعب وهزيمة جيشه، وبذلك دخل العراق تحت سيطرة الخلافة الأموية.

واستعد عبد الملك بعد ذلك للقضاء على عبد الله بن الزبير في الحجاز، فعهد إلى الحجاج بن يوسف الثقفي بقيادة الجيش الأموي، فزحف الحجاج نحو الحجاز وحاصر مكة وأمر بضربها بالمنجنيق، إلى أن تفرق جند ابن الزبير عنه بسبب اشتداد الحصار والقتال عليهم حتى لم يبق مع ابن الزبير سوى عدد قليل من الجند حتى قتل في شهر جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ، وبذلك دخل الحجاز تحت سيطرة الدولة الأموية وبايع أهل الحجاز الخليفة الأموي.

أما الخوارج في عهد عبد الملك فقد استؤنف القتال بين الخوارج والجيش الأموي، حيث استطاع خالد بن عبد الله بن أسيد عامل الأمويين على البصرة هزيمتهم بمساعدة القائد المهلب بن أبي صفرة في الاحواز واستمروا بتعقبهم في بلاد فارس. وبعد تولي الحجاج

بن يوسف الثقفي ولاية العراق سنة ٧٥ هـ بدأت مرحلة جديدة من الحرب ضد الخوارج حيث بذل جهوداً كبيرة في القضاء عليهم ووجه الجيوش من الكوفة والبصرة لمساعدة المهلب الذي استمر بتعقب الخوارج في بلاد فارس، كذلك قامت جماعة أو فرقة أخرى من الخوارج تعرف بـ (الصفرية) اتخذوا من إقليم الموصل والجزيرة الفراتية مسرحاً لنشاطها واستطاعت هذه الفرقة تحقيق الانتصارات على الأمويين قرب الكوفة، إلا أن الجيش الأموي تمكن من الانتصار عليهم وقتل زعيمهم سنة٧٧هـ.

ومن حركات المعارضة الأخرى التي واجهت عبد الملك هي حركة عبد الرحمن بن الأشعث التي هددت الدولة الأموية، واستطاع ابن الأشعث تحقيق بعض الانتصارات على الجيش الأموي، إلى أن تمكن الحجاج بن يوسف والي العراق من الانتصار عليه وهزيمته سنة ٨٢ هـ

أما الفتوحات الإسلامية في عهد عبد الملك بن مروان فاستمرت وامتدت إلى مختلف الجهات، ففي الشرق أرسل الحجاج والي العراق جيشاً بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث لإخضاع بلاد الترك في آسيا الوسطى، واستطاع الجيش الإسلامي تحقيق نجاح كبير في ذلك، ولكن ابن الأشعث أعلن الثورة على الحجاج كما ذكرنا ذلك قبل قليل. أما في الشمال فقد أستأنف المسلمون هجماتهم على الروم البيزنطيين بعد أن هادنوهم مدة من الزمن بسبب الأحداث الداخلية التي كانت تمر بها الدولة الإسلامية، فاستطاع المسلمون تشتيت شملهم، واستمرت الحملات المتكررة ضد الروم التي عرفت بالشواتي والصوائف (أي حملات الشتاء والصيف). أما في شمال أفريقيا فقد وصلت الجيوش الإسلامية إلى المحيط الأطلسي ودخل اغلب البربر (سكان المغرب العربي) في الدين الإسلامي.

ومن الأعمال والانجازات الإدارية والمالية المهمة التي قام بها الخليفة عبد الملك بن مروان هي تعريب الدواوين وسك النقود، فبالنسبة للدواوين فقد كانت على نوعين أولهما

(ديوان الجند) لتسجيل أسماء الجند وتقدير أعطياتهم (رواتبهم) وكان باللغة بالعربية، والثاني (ديوان الخراج) أي ديوان المال والجباية وكان يكتب بلغة البلاد المحررة والمفتوحة، ففي العراق بالفارسية وفي الشام بالرومية وفي مصر بالقبطية، فقرر الخليفة عبد الملك أن تكون اللغة العربية لغة الدواوين ليشرف الخليفة وولاة الأمصار على هذه الناحية المهمة من تنظيمات الدولة العربية الإسلامية، وكان تعريب الدواوين قد ساعد على نشر اللغة العربية فقد أقبل الكتاب من غير العرب على تعلم العربية كـي يستمروا في عملهم في هذه الدواوين.

أما عن سك نقود جديدة ذات صبغة عربية إسلامية، فقد كانت العملة المتداولة حتى ذلك الوقت هي البيزنطية والفارسية، حتى أمر عبد الملك بسك النقود وجعل الدولة تشرف على سكها وإدارتها ونهى أن يُضرب غيرها وكان ذلك سنة ٧٥ هـ. وكان الشيء الذي دفع عبد الملك إلى اتخاذ هذه الخطوة هو مصلحة الدولة وسياستها العامة وإكمال سيادة الدولة الإسلامية، كما وثق الناس بهذه النقود وتخلصوا من العملة الزائفة والمغشوشة، وكتب على النقود الجديدة آيات قرآنية كريمة وأسم الرسول الكريم (ص)، وعلى الوجه الآخر اسم الخليفة الذي سكت النقود في عهده وتاريخ إصدارها، وقام ولاة الدولة في الأمصار بسك نقود على شاكلة تلك النقود. كما قام عبد الملك بتنظيم وتطوير نظام البريد وجعله أكثر سرعة، كما عمل على تنظيم الضرائب وضبط جبايتها، ومن الأعمال المهمة التي حدثت في عهده هو تنقيط الحروف لإبعاد الخطأ على لسان الأعاجم لتشابه رسم بعض الحروف، فقام الحجاج التقفي والي العراق بوضع النقاط ليستطيع المتعربون إخراج كلامهم على الوجه الصحيح، ومن انجازات عبد الملك المهمة أيضاً بنائه لمسجد قبة الصخرة في القدس سنة ٧٢هـ.